غمدان

أول ناطحة سحاب في العالم

مطهر علي الأرياني *

تتحدث معظم المراجع العربية عن (قصر غـُمدان) ، وقد توسع في ذكره كل من المسعودي في مروج الذهب ، والنويري في نهاية الأرب وياقوت في معجم البلدان والبكري في معجم ما استعجم والألوسي في بلوغ الأرب ، وذكره أيضاً عدد من المراجع التاريخية والبلدانية والأدبية وحتى المعاجم اللغوية .

وحديث هذه المصادر عن (غمدان) يجمع بين الحقائق التاريخية الناصعة ، وبين بعض الجوانب الميثلوجية التي تقترن عادة بكل عمل فذ من أعمال الانسان ، فبينما تذكر الروايات القائلة بأن سام بن نوح هو مؤسس (غمدان) وبانيه ، وتلك القائلة بأن جن سليمان هم الذين بنوه للملكة بلقيس ، نجد بعضها يقترب من الحقائق التاريخية فيروي ياقوت عن ابن الكلبي شيئاً مما له مصداقيته في ما لدينا من أصح المراجع وأصدقها وهي نقوش المسند اليمني القديم ، وذلك حين يقول : « قال هشام بن محمد بن السائب الكلبي : إن ليشرح بن يحصب أراد اتخاذ قصر بين صنعاء وطيوة ، فأحضر البنائين والمقدرين ليقدروه ، فانقضّت على الخيط حدأة فذهبت به فاتبعوها حتى ألقته في موضع غمدان فقال ليشرح : ابنوا القصر في هذا المكان .. » .

(*) باحث ومؤرخ وشاعر من اليمن .

واسم الملك المذكور في الفقرة ، وطبقاً لنقوش المسند هو (إلِيْ شَرَحَ يُحْضِب) و (طيوة) اسم مكان غير معروف ، ولكن النص يذكر اسم هذا الملك الذي نجد أن ما بأيدينا من نقوش المسند حتى الآن تذكره كواحد من الملوك الذين تقترن أسماؤهم باسم (غمدان)، وهذا يدل على أن في المؤرخين القدامى من كان يقرأ نقوش المسند ٠

أما أوسع حديث عن (غمدان) فجاء في مؤلفات لسان اليمن الحسن بن أحمد الهمداني ، وخاصة في الجزء الثامن من كتابه الاكليل ، وأهمية كلام الهمداني تأتي من أنه مؤرخ يمني ، واليمنيون أعلم بتاريخ بلادهم ، ثم أنه من قدماء المؤرخين ـ (٢٨٠ ـ ٣٦٥ هـ) أي قبلما يزيد عن ألف عام ، رغم أن غُمدان لم يعد له وجود في عصره ٠

والهمداني يذكر رويات الاخباريين الاسطورية التي تقول : إن أول من أسسه وابتدأ بناءه ، هو سام بن نوح ، كما يشير في مكان آخر الى حكاية الجن وسليمان وبلقيس ، ولكنه سرعان ماينصرف عن ذلك ، ويذكر أول ملك يقترن اسمه بـ (غمدان) حيث يقول :

« أول قصور اليمن وأعجبها ذكراً ، وأبعدها صيتاً قصر غمدان في صنعاء ٠٠ وكان ـ الملك ـ شعرم أوتر ـ هو الذي وصل بنيان القصور وأحاط على صنعاء بسور » ٠ والملك شعر أوترم ، أقدم من إلي شرح يحضب الثاني الذي ذكره ابن الكلبي وياقوت والهمداني أيضاً ٠

وما ذكره الهمداني حول الملوك وغمدان ، يتوافق مع ما بأيدينا من نقوش المسند حتى اليوم ، فشعرم أوتر هو أول ملك يرد ذكره مقترناً بغمدان ، ونقوشه تحدثنا عن انهماكه في البناء والزخرفة والأعمال الهندسية العظيمة الى حد انصرافه عن بعض الواجبات مما يلزمه التقرب الى الاله وطلب الغفران لهذا الانهماك ٠

ويقول الهمداني : « وكان غمدان عشرين سقفاً غرفاً بعضها على بعض ، وكان بين كل سقفين عشرة أذرع ٠٠ وكانت له أربعة أوجه في تربيعه ، وجه مبني بحجارة بيض ، ووجه بحجارة سود، ووجه بحجارة خضر، ووجه بحجارة حمر ٠

وكانت غرفة الرأس العليا مجلس الملك اثنتا عشر ذراعاً ، وكانت الغرفة تحت سقف وبيضة ـ قبة ـ من الرخام مؤلفة من ثمان قطع، وكانوا يثقبون ـ يشعلون ـ فيها السُرُج فترى من رأس عجيب ـ مرتفع جبلي على بعد نحو خمسين كيلو متراً شمال صنعاء ـ وفي كل ركن من أركان القصر عند ترابيعه أسد من نحاس رجلاه في الدار وصدره ورأسه خارجاً من القصر ، وكل أسد ـ مغضٍ ما بين فيه الى أسفله عن حركات فيه مدبرة ، وكانت الريح إذا هبت تتردد في أجواف تلك الأسوذ فتزأر عنها ، وكان كل أسد يزأر لهبوب الريح من الجهة المدابرة له فاذا تناوحت الريح زأرت كلها ، وكانت في الغرفة العليا ستور فيها أجراس إذا ضربت الرياح تلك الستور تُسمع الأصوات لتلك الأجراس من بعيد ... وكان الملك إذا استلقى في غرفته ومر به الطائر يستطيع أن يعرف الغراب من الحدأة من خلف الرخام ، وكان محزماً بأطواق من الرخام والمرمر بين كل طابق وآخر » وكان كثيراً ما يتعمم الغمام لارتفاعه وارتفاع مدينة صنعاء .

وذكر الهمداني في الجزء الثاني من الاكليل رأياً آخر يعود بذكر بناء (غمدان) الى زمن أقدم ، وذلك في عهد (إلي شرح يُحْضِب الأول) وابنيه (عمرو ينأر) و (وتار ـ يهأمن) . فهؤلاء كما قال في ص ١٠٢ لهم دور في بناء قصر غمدان ، والهمداني يفرق بين إلي شرح يحضب الأول هذا والى شرح الثاني ، فهو ينص أن الأول من بني الصَّوَّار ـ من حمير) ، أما الى شرح الثاني فهو من (بني جُرَت) ، ويذكر الهمداني أن الابن الأول (لالي شرح الأول) لقب بنسبته الى غمدان فهو (عمرو ينأر ذو غمدان) .

وهذا الرأي لم يتنبه له الدارسون المحدثون ، فهم لا يذكرون إلا شعرم أوتر ثم إليشرح الثاني ، ويهملون إلي شرح الأول ، مع أن نقوش المسند تذكره وتجعله من أوائل ملوك سبأ وذي ريدان في العصر السبئي الثالث ـ ١١٥ ق.م .

ويؤكد الهمداني روايته عن ارتفاع قصر غمدان وأنه كان عشرين طابقاً ، وكان ارتفاع كل طابق عشرة أذرع فيكون الارتفاع الكلي مئتي ذراع . وختم تأكيده بقوله : «ولم يتعذر ـ ذلك عليهم ـ لقدرتهم على كل معجز من البناء» .

وبغض النظر عن عدد الطوابق وقد نص الهمداني على روايات أخرى فان

قصر غمدان كان قصراً شامخاً منيفاً ،ويقدر الدارسون المعاصرون أن ارتفاعه كان لا يقل عن أربعين متراً فوق مدينة صنعاء التي تعلو عن سطح البحر بألفي متر وثلاثمائة متر ، والتي يقول فيها الشاعر الجاهلي عدي بن زيد العبادي وهو جاهلي من أهل الحيرة :

ما بعد صنعاءَ ؟ كان يَعْمُرُها ... ولاةُ ملكٍ جزلٌ مواهبُها
رفّعها مَنْ بنى لدى قزع الـ ... ـمزن وتَنْدى مسكاً محاربُها
محفوفةٌ بالجمال دون عرى الـ ... ـكائد ترتقى غواربُها
يأنس فيها صوتُ النهامِ اذا ... جاوبَها بالعشيّ قاصِبُها

ولهذا يقول الهمداني في (غمدان) :

من بعد (غمدان) المنيف وأهله ... وهو الشفاء لقلب من يتفكرُ
يسمو الى كبد السماء مُصَعَّداً ... عشرين سقفاً سَمْكُها لا يقصر
ومن السحاب مُعَصَّبٌ بعمامةٍ ... ومن الرخام مُنَطَّقٌ ومُؤَزَّرُ
متلاحكاً بالقِطْر منه صخرة ... والجَزْع بين جُردبهِ والمرمر
وبكل ركن رأس نسر طائر ... أو رأس ليث من نحاس يزأر
متصمناً في صدره (قطّارة) ... لـ (حساب) أجزاء النهار تقطر
والطير واقفة عليه وفودها ... ومياهه قنواتها تتهدر

* * *

ولم يكن (غمدان) مجرد قصر ملكي ، بل كان رمزاً من رموز السيادة واكتمال السلطان ، فالملك الذي يتمكن من التربع على العرش في سدة (سلحين) و (غمدان) و (ريدان) يكون قد بلغ قمة السيادة ، وشملت سلطته جميع ربوع اليمن القديم . وظل عدد من الملوك ذوي المكانة الرفيعة ، يضيفون الى غمدان عملا من الأعمال البنائية والتزيينية ليعد ذلك من مفاخرهم ، حتى بلغ منتهى العظمة والفخامة في أوائل القرن السادس الميلادي حين وقعت اليمن في قبضة الأحباش ، ومن هنا أخذ الخراب يحل بقصر غمدان حتى لم يبق منه في القرن الرابع الهجري ، أي في عصر الهمداني ، الا بضعة مداميك ذات أحجار ضخمة مهندمة ومتلاحكة ـ متداخلة ـ تلاحكاً عجيباً حسب تعبيره .

وأول انتقاص لقصر غمدان كان على يد الأحباش في عهدي أرياط وأبرهة لما ألحقاه به ، ولما انتزعه أبرهة من زينته ليزين بها قليسه ـ كنيسته ـ .

وبعد جلاء الأحباش أعيد للقصر اعتباره فتربع الملك سيف بن ذي يزن على سدة العرش فيه ، وكان ممن زاره وهنأه على تسنم عرش اليمن عبدالمطلب بن هاشم جد الرسول (ﷺ) ، وأمية بن أبي الصلت الذي مدحه بقصيدة مطلعها :

لا يطيب الثأر الا كابن ذي يزن أغـدّ في البحـر للأعـداء أحوالا

وفيها يقول :

فاشرب هنيئاً عليك التاج مرتفقا في قصر (غمدان) داراً منك محلالا

ويبدو أن هذه المكانة المستعادة لقصر غمدان استمرت في فترة الحكم الفارسي لليمن ، ونزله الولاة من الفرس عندما حل الاسلام ، وحينما ثار عليهم عبهلة بن كعب العنسي ، احتل غمدان وفيه قتل .

ثم جاء المتطرفون والمتزمتون دينياً ـ ولكل عصر متطرفوه ـ فزعموا أن الاشارة الى قصر غمدان في الآية القرآنية **(لا يزالُ بُنْيانُهم الذي بَنَوا ريْبَةً في قلوبِهم)** ، ثم الاشارة في قوله تعالى **(أتَبْنُونَ في كُلِّ ريعٍ آيةً تَعْبَثُون ، وتَتَّخِذونَ مَصَانِعَ لعَلَّكُم تَخْلُدُون)** انما هي ايذان بهدمه ، ثم زعموا أن الرسول (ﷺ) أمر بهدمه ، ثم نسبوا مثل ذلك الى عمر بن الخطاب (رض) ، أما عثمان (رض) على زعمهم فيقولون انه كلف الولاة بهدمه وقال : لا يزال أهل اليمن يجدون في أنفسهم عزة ما نظروا اليه ، فهدموه .

وهكذا أخذت معاول التعصب والتزمت الديني تعمل في قصر غمدان تخريباً ويقال انهم وجدوا فيه رخامة مكتوبة بالسند : (اسلم غمدان هادمك مقتول) ، وقيل ان الكتابة كانت على خشب بالرصاص المصبوب .

ولم ينته عهد عثمان حتى كان القصر قد أصبح خراباً ، قال الهمداني :

« ولم تزل حمير تنزله وتزيد فيه حتى أُخرب في أيام عثمان ... وقد بقي من حدّ غمدان القديم قطعة ذات جروب متلاحك عجيب قبالة البابين الأول

والثـاني من أبـواب الجامـع ـ جامـع صنعاء الكبـير ـ الشرقية ، وكثـير مما حوله من منازل الصنعانيين فمنه بُنيت ·· وباقيه كالتل العظيم » ·

ان الألوف الخمسة عشر من نقوش السند المتوفرة بين أيدي الدارسين حتى الآن ، ليست الا نقوشاً سطحية ، وصلت الى أيدينا عن طريق التجوال الشخصي ، أو أهدتها لهذا الباحث أو ذاك (محاسن الصدف) ، حيث لم يقم حتى الآن تنقيب أثري في اليمن عدا تلك العملية المبتسرة التي قامت بها على وجل بعثة (ويندل فيليبس) عام /١٩٥٢/ وكان حصادها نحواً من ثلاثمئة نقش من بهو معبد واحد في مـأرب ·

وكان من طقوس اليمنيين القدماء ، ألا يقوموا بأي عمل من أعمال البنـاء ، حتى يسجلوا ذلك على لوح حجري يدخل في صميم البناء وفي أبـرز مكان فيـه ، ولكننا لم نعثـر حتى الآن عـلى النقش التخليدي الخاص بقصر غمـدان والذي لا نكاد نشك في وجوده تحت الأرض ان لم تكن معاول التحطيم قد نالته ·

ولتقريب صورة غمدان من الأذهان ، نقتطف جزءاً مـن نقش يتحدث فيـه الملك (شرحبيل) يُعفِر ملك سبأ وذي ريدان وحضرموت ويمنة وأعرابهم طودم وتهامتم) على بناء قصر في ظفار منكث عاصمة حمير ، ولم يكن لهذا القصر أي شهرة ، بل لم يكن معروفاً ، ولم يذكره أي مصدر من المصادر العربية رغم تأخر عصر بنائه ـ ٤٥٧/م أثناء حكم هـذا الملك ـ حتى ساقته اليّ محاسن الصدف أثناء جولة قمت بها في ظفـار عقب سيل كشف عنـه ، ونشرتـه مع المستشـرق الايطالي جيوفاني غاربيني عام ١٩٦٩ ، في دورية تصدر عن جامعة نابولي · يقول النقـش :

(ان شرحبيل يعفر ملك سبأ وذي ريدان وحضرموت ويمنـة وأعرابهـم في جبال عسير وتهامتها ، بن أبي كرب أسعد ملك سبأ وذي ريدان وحضرموت ويمنة وأعرابهم في جبال عسير وتهامتها ، يعلن أنه أنشأ وأسس وبنـى وأكمل قصـره المسمى (هرجام) من مواثره ـ أساساته ـ الى قمته ، فسمق به وشاد أركانـه وعلّى سقوفه ، وطلاه بالجير من الداخل ، وزينه به من الخارج ، وأوسع لهوجـه ـ نوافذه ـ وأبـدع في سطحه مَفرجـاً ـ غرفة جلوس تطل على مناظر جميلة ـ

وأمده بالماء عبر قناة منحوتة في ميازيب لها شكل أعناق الثيران ورؤوسها ، وبين رؤوس الثيران تماثيل لأسود وأجراس من البرونز الذي بلون الذهب ، وكلها مزخرفة بالزخارف الجميلة ، وجعل فيه بهو استقبال ومجال ندوة واسعاً أقامه مظللا بسقف مزخرف على أعمدة مزخرفة ، ثم انه نصب في أرجاء القصر وحوله تماثيل لأناس ولأوعال ولأسود ولنمور ، وكلها من البرونز الذهبي النفيس . وفي هذا الوقت نفسه فان الملك شرحبيل يعفر يعلن أنه قام أيضاً بترميم وتجديد وتنظيف العرم الذي في مأرب – سد مأرب – بكل أجزائه وبصدفيه ومصارفه ، ومن البدء الى الختام ، وتم له كل ذلك في عام واحد ، وذلك بنصر وعون الرحمن رب السماوات والأرض ، وبقوة ورفد شعبه وخميسه سبأ وحمير وحضرموت ويمنة ، وسطر هذا في شهر ذي ايلان سنة ٥٧٣ » .

وهذا التاريخ اليمني القديم يقابل ٤٥٧ م . ونقول : انه اذا كان هذا هو ما صنعه الملك شرحبئيل يعفر في قصر ثان بناه بجانب القصر القديم (ريدان) في ظفار ، فماذا كان في قصر ريدان ؟؟ . واذا كان قصر (غُمدان) أشهر من قصر ريدان ، فماذا كان في قصر غمدان ؟؟ .

وهذا هو ما تبادر الى ذهن كاتب المقال ، حينما قرأ خبراً نشرته جريدة الثورة يوم الأحد ٢٤/١٠/١٩٩٣ عن قرار جمهوري صدر في صنعاء تلبية لخطة وزارة الثقافة ، ويقضي بانشاء (قصر غمدان للثقافة والفنون والسياحة) بالقرب من موقع القصر القديم ، والحمد للرحمن رب السماوات والأرض ، فقد اكتملت دورة الزمان بغمدان ، وارتفعت عقارب ساعته من حضيض النقصان الى أوج السعادة والتمام ، وهذا هو ما أوحى بكتابة هذا المقال ، تذكيراً للقارىء العربي برمز عظيم من رموز تاريخه القديم .

دمشق في ٢٧/١٠/١٩٩٣

مُطهَّر علي الارياني

★ ★ ★